القيامة والمجد منذ الآن (أفسس ٢: ١-١٠)

الخوري جان عزام
الإكليريكية البطريركية المارونيّة – غزير

مقدمة

هذا النص من رسالة بولس إلى أهل أفسس، التي هي واحدة من رسائل الأسر، يعلن ما سبق وأكّده بولس مراراً في الرسالة إلى أهل روما عن أنّ الإيمان المسيحي يرتكز على الإعلان المفرح بأن الله قد خلّص الجميع، أمماً ويهوداً، بيسوع المسيح القائم من الموت، دون أيّ استحقاق من أحد، بل بحب مجاني خالص منه. والنص هنا ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أ- واقع الخطيئة والموت لدى الأمم واليهود (آ ١-٣).

ب- الخلاص المجاني بيسوع المسيح (آ ٤-٧).

ج- الخلاص بالإيمان لأجل الأعمال الصالحة (آ ٨-١٠).

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند كل هذه الأقسام، ولا نرغب في أن نشرح هنا كلّ الآيات. فالموضوع سهل وواضح، وما يريد بولس أن يقوله ببساطة هو أنّ واقع الموت الذي ينتج عن الخطيئة لا يفرّق بين من يخطئون عن عدم معرفة الله الحقيقي أو الذين يخطئون بالرغم من معرفتهم له. فالخطيئة هي الخطيئة وتقود إلى الموت. وإن كان الله قد تدخّل بابنه يسوع فلأجل إحياء كل الذين ماتوا بسبب خطاياهم، وقد فعل ذلك برحمته اللامتناهية ونعمته المجانية التي تجسّدت في شخص ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح. أمّا ما نريد أن نتوقّف عنده فهما موضوعان أساسيان، وذلك بالارتكاز على الآيتين ٦ و٨ من النص.

أ- "ومعه أقامنا من الموت وأجلسنا في السماوات في المسيح يسوع" (آ ٦).

إنّ فكرة الموت مع المسيح والقيامة معه موجودة عند بولس منذ الرسالة إلى أهل روما (٦: ٣-١١ و٨: ١١ و١٧). وكان بولس قد أكّد في معرض كلامه عن مفاعيل المعمودية (٦: ٣-١١) بأنّ المؤمن الذي يعتمد بالمسيح إنّما بموته يعتمد لكي ينال الحياة بقيامته. والمقصود في هذا النص هو أنّ الذي يعتمد لا يستطيع أن يختبر الحياة الجديدة، حياة أبناء الله بالمسيح الابن، إلاّ إذا قبل أن يدفن إنسانه العتيق مع موت يسوع المسيح، كما يعبّر عن ذلك النزول في ماء حوض المعمودية: لأنها لا حياة جديدة إلاّ بموت العتيقة. فالمعمودية إذاً ترمز وتحقّق سرّ موت المسيح وقيامته بطريقة أسراريّة بحيث أنّ من يموت في المسيح عن إنسان الجسد والخطيئة يؤمن بأنه سيحيا معه بالقيامة، وذلك من خلال مسيرة تبدأ بميلاد الإنسان الجديد في المعمودية، وتصبح نهائيّة بقيامته على شبه قيامة المسيح، وتتوج بنواله الجسد الروحاني والجلوس في السماء عند مجيء المسيح الأخير. الواضح في نص روما، من خلال استعمال الأفعال في صيغة المستقبل، هو أنّ قيامة المؤمنين تبدأ في المعمودية، ولكنها تتحقّق بكمالها في المستقبل من خلال مسيرة تمرّ عبر الموت الجسدي وانتظار قيامة الأجساد (رج ١كو ١٥). هذا هو المعنى الأساسي أيضاً لنص روم ٨: ١١ و١٧ حيث يؤكّد بولس على أنّ روح الله سيحيي أجساد المؤمنين المائتة (على مثال قيامة المسيح من بين الأموات، آ ٨)، كما سيعطيهم أن يشاركوا في مجد المسيح (السماوي) بعد أن شاركوا في آلامه (آ ١٧). هنا أيضاً الأفعال باليونانيّة موجودة في صيغة المستقبل.

أمّا اللافت في نصّنا[١] فهو إعلان بولس لهذه الحقيقة، أعني قيامة المؤمنين من الموت وتمجيدهم المعبّر عنه بفكرة الجلوس في السماء، من خلال أفعال في صيغة الماضي، أي كأمر قد تحقّق بالكامل وليس فقط في طريقه نحو التحقيق من خلال مسيرة تمتدّ إلى الموت الجسدي وما بعده.

لقد تطوّر فكر بولس مع الوقت من خلال اختباره الشخصي والكنسي[٢]. لقد اختبر بولس بأن الكنيسة هي حقاً جسد المسيح السرّي، وهذا ما سبق وعبّر عنه في الرسالة إلى أهل روما وإلى أهل كورنتس (رج روم ١٢ و ١كو ١٢)، وسبق وأكّد بأن مسيرة الكنيسة هي في أن تبلغ ملء قامة المسيح الممجّد في السماء. وهذان التأكيدان يسمحان بفهم ما يعلنه بولس هنا: فمن جهة أولى، الكنيسة هي جسد المسيح السرّي؛ أي أنها حاضرة مع المسيح الممجّد في جسده في السماء؛ ومن جهة أخرى، هي نفسها تحتاج إلى أن تحافظ على رباطها بالمسيح ونموّها في قامته حتى يتحقّق فيها، على مستوى كلّ عضو من أعضائها، ما سبق وتحقّق بالكامل على مستوى الجسد كلّه. إذاً، حاجة المؤمن الفرد لكي يولد في المعمودية، وينمو في الإنسان الجديد، وينال القيامة التامة لدى موته الجسديّ، ويصل إلى ارتداء جسده الشخصي كجسد ممجّد عند مجيء المسيح الأخير، هي حاجة ترتبط بحرية كلّ فرد، عضو في جسد المسيح، بأن يبقى مرتبطاً بهذا الجسد، وبأن يصل إلى ملء قامته، أو بأن ينتزع نفسه منه بالانفصال عنه. أمّا الجسد ككلّ، أعني الكنيسة كحقيقة تحقّقت في المسيح وفي الذين آمنوا به وماتوا بموته واختبروا قيامته، فهي ثابتة ومحقّقة منذ اللحظة التي قام فيها المسيح من الموت وأقام معه كلّ الذين آمنوا، منذ آدم وعبر كل التاريخ الخلاصي. فجسد المسيح البشري قد قام وتمجّد وصار في السماء، وكذلك جسده السرّي، الذي هو الكنيسة، قد صار حاضراً في السماء يشارك في هذا المجد. وعندما يؤكّد بولس في الآية ٦ من نصّنا على الـ "نحن"، فإنّما يفعل ذلك من خلال الإيمان الثابت بأن الذين قد اختبروا الولادة الجديدة من موت خطيئتهم ويعيشون بحسب إيمانهم، يرتبطون بالمسيح الممجّد وبكنيسته الممجّدة أيضاً بطريقة أسراريّة، لدرجة أنّهم يستطيعون أن يعتبروا أنفسهم بأنهم سبق وبدأوا يشاركون في القيامة والمجد السماوي "في المسيح يسوع". فالإيمان هو الضمان على أنّ القيامة قد تمّت، والمجد قد بدأ، وحياة الإيمان هي الضمان على تتميم هذا في كلّ مؤمن.

هنا، ننتقل إلى معالجة الموضوع الثاني المهم في النص، أعني موضوع الإيمان الذي يجب فهمه جيّداً، لفهم المعنى العميق لما أكّده بولس في الآية ٦.

ب- " أنتم بالنعمة مخلّصون بواسطة الإيمان" (آ ٨).

هذا الموضوع أيضاً، قد سبق أن عالجه بولس في رسالته إلى أهل روما وأيضاً في رسالته إلى أهل غلاطية، وليس ما يقوله هنا بالجديد المطلق. ما يهمنا هنا هو أن نفهم أهميّة الإيمان في جعل ما يجب ان يكون حقيقة مستقبلية (القيامة من الموت والجلوس في السماء في المجد) حقيقة حاضرة وآنية، ليس فقط من خلال الإنتماء السّري إلى جسد المسيح، أي الكنيسة، بل أيضاً على المستوى الفردي لكلّ مؤمن.

إنّ المفهوم الحقيقي للإيمان ليس في تصديق حقائق معيّنة وانتظار تحقيقها

١- رج أيضا كول ٢: ١٢و ١كو : ١-٤.

٢- وقد يقول قائل إن هذه الرسالة ليست لبولس بل لأحد تلاميذه. ونحن لا نوافق على هذا الاستنتاج، خاصة عندما يوضع في صيغة الأمر المؤكّد، مع أنّ لا شيء يسمح بهذه التأكيدات العلمية "العقائدية" التي قد تسقط بعد سنوات قليلة، بمجرد أن تتوافر لدينا دراسات جديدة!

في المستقبل، بل الإيمان الحقيقي هو المرتبط بحضور الله وعمله في التاريخ الخاص بكل إنسان مؤمن، كما في التاريخ الخلاصي العام. فالمؤمن يختبر بأن كلام الله ومواعيده هي حقائق ثابتة وحاضرة ومحقّقة في كلّ يوم في حياته. وإن كان من رجاء للمستقبل فهو في انتظار التحقيق التام لهذه المواعد التي سبق وبدأت. بهذا الإيمان ولأجله جاء يوحنا المعمدان، وبعده المسيح، يعلنان أنّ ملكوت الله قد حضر وهو بيننا. ليس لأن ملكوت الله المطلق قد تحقّق بالتمام في مجيء المسيح وبدء رسالته، بل لأن هذا الملكوت قد بدأ، ومن يؤمن بحامله، أي المسيح، يستطيع أن يختبر مفاعيله منذ الآن. إذاً، فالإيمان الذي يرتكز أولاً وآخراً على الحقائق الأبدية الموجودة في الله الأزلي المتسامي الذي لا يتبدّل، يرتكز أيضاً على اختبار هذه الحقائق في الزمن وفي التاريخ الشخصي بمجرّد الإيمان بالله وبمسيحه[٣]، وبالخبر السار بموته وبقيامته، أي بالإنجيل[٤].

والإيمان المسيحي لا يرتكز فقط على المعرفة بموت المسيح وبقيامته، بل أيضاً وخاصة على اختبار انتقال المؤمن هو نفسه من موت خطاياه وجهله وموته وإنسانه القديم المستعبد للأوثان والعاجز عن الحياة... إلى الإنسان الجديد الذي هو على مثال ابن الله. وكيف عاش ابن الله؟ لقد عاش من حبّ الآب المطلق والثقة به والانتصار على الخوف من الموت، لدرجة أنه مات على الصليب حبًّا بالله وبالإنسان الخاطئ. فالمؤمن هو أيضاً، مثل المسيح، يستطيع أن يحبّ ببعد الصليب، ويتصالح مصالحة عميقة مع الله ومع الذات ومع القريب. لذلك فالتطبيق العملي للنص الذي نعالجه في أفسس ٢: ١-١٠ يعبّر عنه بولس في نفس النص، في الآيات ١١-٢٢ التي تؤكّد على هذه المصالحة التي تمّت بدم المسيح وبصليبه بين الوثنيين واليهود، وبينهم ومع الله، حتى إنّهم صاروا سكان مدينة الله ومدينة القديسين، لأن مسكن الله نفسه (السماء) صار موجوداً فيهم وبينهم من خلال الروح القدس، روح المسيح المحيي! إذاً فالإيمان هو ضمان ما نرجو! وليس الرجاء هو أن نتمنّى بأنّ ما نؤمن به (عقلياً) قد يتحقق في المستقبل. إنه الضمان لتمام تحقيق ما سبق وبدأنا اختباره بطريقة أكيدة وحقيقيّة في الحياة اليوميّة. والذي يؤمن هو الذي يعرف بدون شك بأن ما يؤمن به حقيقة حاضرة، ولكنها تنمو حتى بلوغ الملء في المسيح يسوع.

هذا المفهوم للإيمان موجود في كل الكتاب المقدّس، ولا حاجة لأن نشرحه هنا، ولكن ما أردنا أن نؤكّده هنا، هو أنّ قول بولس بأنه "أقامنا وأجلسنا مع المسيح في السماوات" (أف ٢: ٦) يتضح من خلال الآية ٨ التي نحن بصددها، وهو أن الأمر ليس مجرّد صورة رمزية، بل حقيقة أكيدة قابلة للاختبار العملي لدى كلّ من يختبر قوّة الإيمان وفعاليّة إعلان "الكريغما"، الخبر السار، بموت المسيح وقيامته.

وهذا ما يفسّر ايضاً قول بولس الدائم بأن الخلاص هو من الله بطريقة مجانية، وأنّ الحصول عليه يتطلّب فقط الإيمان، أي الثقة بالله وبالمسيح القائم من الموت. أمّا الأعمال فليست هي السبيل إلى الخلاص، بل الخلاص هو المدخل لكلّ الأعمال الصالحة، التي تصبح ثمرة أكيدة للإيمان، وعلامة على صحته. وهذا موضوع آخر سبق وتكلّمنا عنه في مواضع أخرى[٥]

خاتمة

بالتجسّد والقيامة صارت السماء حاضرة على الأرض، وصارت البشريّة حاضرة في قلب الثالوث الأقدس؛ وإذا كان ما نراه هنا ونعيشه هنا ليس بعد مجد السماء التام، ولكن الأكيد أننا بالإيمان نحيا حقيقة السماء ونشارك في مجدها منذ الآن بما تسمح به محدوديّة الزمان والمكان، وإلى أن نبلغ ملء قامة المسيح.

٣- رج روم ٣: ٣ت؛ ١تس ٥: ٢٤؛ ٢طيم ٢: ١٣؛ روم ٤: ١٧-٢١؛ عب ١١: ١٩.

٤- رج روم ١٠: ٨-١٧؛ ١كو ١: ٢١؛ ١٥: ١١ و١٤.

٥- راجع على سبيل المثال مقالتي في المجلّة الكهنوتيّة ١-٢ (١٩٨٨) ٧٤-٨٤.